# الرواية المغربية

## نشأة الرواية المغربية

إذا كانت نشأة الرواية والقصة القصيرة بالمشرق العربي قد سبقت نشأة القصة القصيرة بعقود، فإن وضع الرواية المغربية يعد مختلفا، إذ نشأت متأخرة عن القصة القصيرة والسيرة الذاتية. وهذا الأمر جعلها تعيش في تطورها وضعا إشكاليا يتمثل في وقوعها تحت سلطة أشكال سردية ذات مرجعيات مختلفة أبرزها: الرواية المشرقية والقصة القصيرة والسيرة، إضافة إلى السرد الطويل التقليدي المتمثل بشكل خاص في أدب الرحلة.

ولعل من أبرز مظاهر هذا الوضع الإشكالي الذي ميز نشأة الرواية المغربية أن الأعمال السردية الطويلة الأولى في المغرب ظهرت في صيغة سير ذاتية، ومنها: "في الطفولة" لعبد المجيد بن جلون 1957 و"جيل الظمأ" لمحمد عزيز لحبابي 1967 و"سبعة أبواب" لعبد الكريم غلاب 1965.

وفي هذا السياق يقول أحمد المديني متحدثا عن الظهور المتأخر للرواية المغربية وما يطرحه من خضوعها للنموذج المشرقي: "إذا كانت القصة القصيرة في المغرب قد تصدرت الأجناس الأدبية المعروفة... فإن الرواية، على العكس من ذلك، تظل جنسا أدبيا طري العود طري المراس، غير خاضع لوتيرة منتظمة في تطوره... وبالنسبة للرواية المغربية تبدو الورطة أكبر ما دامت تمثل العطب المزدوج: عطبها الخاص المتعلق بنشأتها، وعطب تقليدها للرواية المشرقية التي قلدت بدورها رواية الغرب" (**الأدب المغربي الحديث لأحمد المديني**).

ويرجع كل من عبد الله العروي وحسن الوزاني سبب ظهور الرواية المتأخر في الأدب المغربي إلى تأخر نشأة الطبقة البورجوازية التي تعبّر الرواية عن انشغالاتها، لكونها "ملحمة البرجوازية" حسب تعبير جورج لوكاتش، عكس القصة التي تعبر عن انشغالات الفئات المهمشة. وفي هذا الإطار يقول حسن الوزاني: "ساهمت التحولات الاجتماعية التي طبعت فترة الأربعينيات والمزامنة لنهاية الحرب العالمية الثانية في خلق جانب من شروط ظهور الرواية المغربية. وارتبطت التحولات تلك، من جهة، بتغير البنية السوسيو–مهنية وبتطور هامش الأطر المثقفة داخلها، ومن جهة أخرى بانبثاق برجوازية مغربية بالمدن الكبرى كفاس" (**الأدب المغربي الحديث لحسن الوزاني**).

وقد تضافرت عوامل متعددة، قبل الخمسينيات وخلالها، أدت إلى نشأة الرواية في الأدب المغربي، لعل أبرزها تطور الكتابة القصصية القصيرة وظهور أشكال جديدة من القصة الطويلة أهمها القصة التاريخية والرحلة التي حققت بعض التطور منذ الثلاثينيات، فكانت ممهدة للانتقال إلى الكتابة الروائية، مثلما نجد في رحلة ابن المؤقت المراكشي، إضافة إلى بعض التحولات الاجتماعية التي شهدها المغرب والمتمثلة في توسع قاعدة المثقفين وتطور بنية النشر وبداية ظهور البرجوازية.

هذه العوامل كلها جعلت أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات تشهد ظهور أولى الأعمال الروائية بالمغرب، قبل أن تنتقل الرواية المغربية تدريجيا إلى مرحلة النضج بداية من الستينيات. وقد قدم أحمد اليبوري في كتابه "الكتابة الروائية في المغرب" رصدا لتطور

الكتابة القصصية الطويلة بالمغرب، بظهور نصين شبه روائيين خلال الثلاثينيات والأربعينيات هما: "الرحلة المراكشية" لابن المؤقت و"الزاوية" للتهامي الوزاني، قبل أن تظهر الأعمال الروائية التي بلغ عددها خمسة خلال الخمسينيات أبرزها: "وزير غرناطة" لعبد الهادي بوطالب و"في الطفولة" لعبد المجيد بن جلون.

ويمكننا، من خلال تتبع نشأة الرواية واستوائها نوعا أدبيا قائما بذاته، وتتبع تطورها الفني في الأدب المغربي، رصد ثلاث مراحل أساسية تعد محطات فاصلة في مسيرتها، هي: مرحلة التأسيس والمرحلة الواقعية ومرحلة التجريب. لكن ما يجب الإشارة إليه أن الحديث عن هذه المراحل مشوب بكثير من الحذر في الفصل بينها، بسبب التداخل الذي نشهده بينها، إذ أننا نجد امتدادا لمرحلة في مرحلة أخرى. ولعل هذا ما دفع بعض الباحثين، ومنهم أحمد اليبوري (الكتابة الروائية في المغرب) إلى الحديث عن "اتجاهات" للرواية المغربية بدل الحديث عن "مراحل". ولهذا فإن تقسيم تطور الرواية إلى مراحل يستند أساسا إلى الاتجاه الغالب في كل فترة زمنية، دون أن ينفي ذلك وجود اتجاهات أخر في الفترة نفسها.

## المرحلة الأولى: التأسيس

تمثلها الأعمال الروائية المبكرة التي تمتد من الخمسينيات إلى منتصف الستينيات. ويمكن النظر إلى رواية "وزير غرناطة" التي صدرت سنة 1950 لعبد الهادي بوطالب بداية لهذه المرحلة وتأسيسا للكتابة الروائية بالمغرب بعد الأعمال "شبه الروائية" خلال الثلاثينيات والأربعينيات، على حد تعبير أحمد اليبوري، كالرحلة المراكشية لابن المؤقت و"الزاوية" للتهامي الوزاني.

وإذا كان الأمر كذلك فإن بداية نشأة الرواية كانت تحمل أبعادا تاريخية وسيرية، إذ تعرض رواية عبد الهادي بوطالب لحياة الشاعر لسان الدين بن الخطيب الأندلسي (ذي الوزارتين) من 740 هـ، حين لمع نجمه في الأدب والسياسة، إلى مقتله بفاس سنة 776 هـ، وما صاحب ذلك من تحولات سياسية تتمثل في علاقة المرينيين بملوك بني نصر بغرناطة، وما تعرض له الوزير من فتنة بعد اتهامه بالزندقة، ثم فراره إلى المغرب، لينتهي الأمر بقتله وإحراق جثته بفاس بعد إحراق كتبه.

فالرواية، إذن، مبنية على وقائع من تاريخ المغرب والأندلس ومن حياة الشاعر والوزير لسان الدين بن الخطيب. وهو ما يجعلها تجمع بين الكتابة التاريخية والكتابة السيرية. غير أن الكاتب يضفي غليها بُعدا تخييليا يُبعدها عن مجال السيرة الغيرية ويقربها من مجال الرواية، يتمثل في بعض الأحداث العجيبة التي تحكيها العجوز، التي تتولى السرد، في بداية الرواية. وهذا البعد التخييلي هو الذي يجعل "وزير غرناطة" أول رواية في الأدب المغربي الحديث. لكنها رواية تحمل بعض سمات البدايات وأبرزها مزج التاريخي بالخيالي والسيري بالروائي. وهي سمات لم تسلم منها الرواية العربية نفسها في بداياتها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد استمر حضورها في الرواية المغربية بعد ذلك بفترة قبل أن تتمكن من تأسيس كيانها الخاص بها.

وقد شهدت الخمسينيات وبداية الستينيات ظهور روايات أخرى أهمها: "في الطفولة" لعبد المجيد بن جلون و"سبعة أبواب" لعبد الكريم غلاب.

فهاتان الروايتان اللتان ظهرتا على التوالي سنتي 1957 و1965 مطبوعتان بطابع الكتابة السيرية[1]، بحيث يمكن القول بأن "في الطفولة" سيرة ذاتية خالصة تحمل كل خصائص السيرة الذاتية، يعود من خلالها بن جلون إلى طفولته بالمغرب وأنجلترا ليحكي تفاصيل ما احتفظت به ذاكرته منها. وتظل "سبعة أبواب" متراوحة بين الكتابتين الروائية والسيرية، أو بين ما يسميه أحمد اليبوري

[1] بدأ بن جلون نشر سيرته "في الطفولة" منذ 1949 على شكل حلقات في مجلة رسالة المغرب، ثم جمعها في كتاب سنة 1957.

"ملفوظ الحقيقة" وملفوظ التخييل"، إذ يمكن تصنيفها، تبعا لذلك، ضمن نوع "السيرة الروائية" لمزاوجتها بين الطابعين الخيالي والواقعي، مع هيمنة الطابع الواقعي على معظم أحداثها. يقول محمد مندور في تقديمه للرواية: "هذه الذكريات تصور تجربة حية عاشها الكاتب فعلا، وهي تجربة السجن ستة أشهر رهن التحقيق، بتهمة الإخلال بالأمن". ويدل على هذا الطابع السيري أيضا العنوان الأصلي الذي نشرت به الرواية في حلقات، وهو "مذكرات سجين".

هكذا، إذن، يمكن النظر إلى هذه الأعمال الثلاثة: "وزير غرناطة" و"في الطفولة" و"سبعة أبواب" بوصفها أعمالا تأسيسية في تاريخ الرواية المغربية. وبسبب طابعها التأسيسي فهي تحمل سمات عدم وضوح خصائص النوع الروائي، حيث تجمع بين الواقعي والخيالي، وبين التاريخي والروائي والسيري، وإن كانت "في الطفولة" أكثر تميزا لانتمائها الواضح إلى نوع السيرة الذاتية.

وهكذا فإن من أبرز خصائص الكتابة الروائية في هذه المرحلة: استمرار حضور الموضوع التاريخي (في "وزير غرناطة") بجانب الموضوع الوطني (في "سبعة أبواب")، وحفاظ الكتابة الروائية على خصائص الكتابة التقليدية من اهتمام بالحكاية والتتابع الخطي للأحداث، واعتماد الحبكة التقليدية التي تعتمد على العقدة وحلها، وحضور السارد العليم الذي يمسك بخيوط السرد ويتحكم في أفعال الشخصيات ويطّلع على خباياها، أو السارد المشارك الذي يقدم رؤية مصاحبة للمسرود بوصفه شخصية سردية (في الطفولة).

هذه الخصائص مجتمعة جعلت الرواية المغربية موسومة بعدم النضج النوعي، إذ طغى عليها الطابع الإحالي والميل إلى ما هو واقعي وما له صلة مباشرة بحياة الكاتب/السارد، أو غيره، فجاءت الكتابة الروائية ممتزجة بالكتابة السيرية بنوعيها: الذاتي (سبعة أبواب – في الطفولة) والغيري (وزير غرناطة). وهذا ما نلمسه بشكل واضح في رواية "سبعة أبواب" التي تقف على حدود نهاية هذه المرحلة الأولى من تطور الرواية المغربية، حيث يتخلى السارد/الكاتب، في كثير من الأحيان، عن مهمة سرد الأحداث، ليضمّن الرواية تعليقات يقدم من خلالها وجهة نظره الخاصة، كما في قوله: "فالنوم انصراف عن عالم الحياة بكل مباهجها ومآسيها. وإذا كانت الحياة محببة إلى النفس، فكثيرا ما تشتاق النفس كذلك إلى التخلص منها إلى عالم آخر فيه لذته وشقاؤه... عالم الأحلام".

كل هذا جعل البداية الحقيقية للكتابة الروائية بالمغرب تتأخر إلى مرحلة الستينيات، وإلى ما بعد منتصفها بشكل خاص، لتفصلها بذلك فترة طويلة عن بداية نظيرتها المشرقية. وهو ما يطرح مشكلة أصالة هذه الرواية كما تحدث عنها أحمد المديني.

## المرحلة الثانية: المرحلة الواقعية

تمتد من منتصف الستينيات إلى منتصف السبعينيات، ويؤطرها على المستوى الاجتماعي طرح المسألة الاجتماعية بعد تمخض الاستقلال عن أعطاب عميقة كان من أبرز تجلياتها ظهور فوارق فادحة بين فئة فقيرة محرومة تمثل القاعدة الواسعة من الهرم الاجتماعي، وفئة محظوظة تعتلي قمة الهرم، كما يؤطرها على المستوى القومي هزيمة 67 التي عمقت جراح المواطن العربي بعد احتلال الصهاينة أجزاء أخرى من فلسطين وبعض البلدان العربية. أما على المستوى الثقافي فيؤطرها انتقال الرواية العربية بالمشرق إلى مرحلة جديدة من التطور تتمثل في ظهور تجربة الرواية الجديدة التي ساهمت نكسة 67 في نشأتها، مع روائيين أبرزهم: صنع الله إبراهيم وحيدر حيدر ونجيب محفوظ.

وتمتاز هذه المرحلة بكونها تمثل البداية الحقيقية للكتابة الروائية بالمغرب، بعد التردد الذي عاشته ما بين الأربعينيات ومنتصف الستينيات. وأبرز عملين روائيين ظهرا في نهاية الستينيات هما: "دفنا الماضي" لعبد الكريم غلاب (1966)، و"جيل الظمأ" لمحمد

عزيز لحبابي (1967). وبهذا يمكن النظر إلى رواية "دفنا الماضي" لعبد الكريم غلاب بوصفها أول عمل روائي مغربي بالمفهوم الحديث، وإن كان البعد الواقعي الذي ميز روايات السبعينيات لم يتبلور فيها بعد، مثلما لم يتبلور بشكل واضح في "جيل الظمأ".

فرواية "دفنا الماضي" تثير موضوع النضال الوطني، على الرغم من ظهورها بعد حصول المغرب على الاستقلال بعشر سنوات، إذ تحكي عن فترة زمنية تمتد ما بين سنتي 1930 (سنة صدور الظهير البربري وبداية تبلور الحركة الوطنية) و1955 (سنة عودة محمد الخامس من المنفى وبداية تشكّل الوعي الطبقي بالمغرب)، وتدور أحداثها حول أسرة تشهد اختلافا بين أفرادها في موقفها من الاحتلال الفرنسي للمغرب، حيث يقف الأب الحاج محمد التهامي بجانب ابنيه: عبد الغني ومحمود موقف المساندين للاحتلال، فيشتغل محمود قاضيا يحاكم الوطنيين، ويقف كل من عبد الرحمن وعبد العزيز موقفا معارضا لهم، فينخرطان في النضال الوطني ويشاركان في المظاهرات التي كانت تنظم ضد المستعمر، ليتم اعتقالهما وإعدام عبد العزيز. وفي آخر الرواية يموت الأب، ويتزامن موته مع عودة الملك محمد الخامس من المنفى وبزوغ فجر الاستقلال. وينتهي الأمر بمحمود إلى مصير شبيه بمصير والده، إذ يلقى حتفه في حادثة سير.

فموضوع النضال الوطني يعد موضوعا مركزيا للرواية التي تصور صراعا بين نموذجين من المواطنين: يمثل النموذج الأول (المتخاذل والخائن للقضية) كل من الحاج محمد التهامي وابنيه عبد الغني ومحمود، ويمثل النموذج الثاني (المناضل الوطني) كل من عبد الرحمن وعبد العزيز. وإضافة إلى الموضوع الوطني تثير الرواية موضوعا آخر كان حاضرا في سرد ما قبل الستينيات أيضا هو صراع الأجيال، الذي سنجد له امتدادا بعد هذا أيضا في رواية "جيل الظمأ" لمحمد عزيز لحبابي. لكن غلابا يجعل هذا الموضوع في روايته منسجما مع موضوع النضال الوطني، من خلال صراع الأب وعبد الغني ومحمود (الذين يمثلون الجيل القديم) مع كل من عبد الرحمن وعبد العزيز (اللذين يمثلان الجيل الجديد)، بحيث ينتهي هذا الصراع بانتصار الجيل الجديد (رغم استشهاد عبد العزيز) والموت الرمزي للجيل القديم من خلال موت الأب ومحمود واندحار الاحتلال بعودة الملك من المنفى.

وهكذا فإن رواية "دفنا الماضي" تصنَّف ضمن روايات الماضي، بإثارتها موضوعا يعود إلى مرحلة ماضية من تاريخ المغرب. وهو ما يجعلها بعيدة عن القضايا الحقيقية والملحّة للمرحلة التي كُتبت فيها، ويُبعدها، من ثَمَّ، عن الاتجاه الواقعي الذي كانت بدايته الحقيقية خلال السبعينيات.

أما رواية "جيل الظمأ" فيعالج فيها محمد عزيز لحبابي موضوع صراع الأجيال في واقع ما بعد الاستعمار من خلال الصراع بين الجيل القديم والجيل الجديد وانتصار الجيل الجديد وثورته على التقاليد. وهو ما يعدّ تقدما نحو الاتجاه الواقعي الذي ساد في الرواية المغربية بعد ذلك.

ومن الروايات التي استمر فيها النفس التقليدي خلال السبعينيات، ولم تستطع التخلص من أثر الماضي الاستعماري، فكانت في بعض جوانبها شبيهة برواية غلاب: رواية "الريح الشتوية" لمبارك ربيع. وهي رواية صدرت سنة 1977. أي أنها تنتمي زمنيا إلى ما يعرف بمرحلة التجريب في الرواية المغربية (ما بعد النصف الثاني من السبعينيات). ومع ذلك فهي نموذج لروايات الماضي، إذ تسير على نهج روايتي "دفنا الماضي" و"سبعة أبواب" في معالجتها قضايا تنتمي إلى فترة سابقة من تاريخ المغرب، أبرزها: نشأة الطبقة العاملة الفقيرة بأطراف المدن الكبرى أثناء الاحتلال الفرنسي، والنضال الوطني من خلال شخصيتين انتزع المستعمر أرضهما، هما: المذكوري الذي ينطلق من نظرة سطحية إلى الواقع فينشغل بالسعي إلى استرداد أرضه التي سلبت منه، والعربي الحمدوني الذي يمتلك وعيا عميقا يرى القضية أبعد من مجرد أرض وأنها قضية وطن بأكمله ونضال ضد المستعمر.

وإذا كانت رواية مبارك ربيع تمثل امتدادا لرواية الخمسينيات والستينيات، لعودتها إلى الماضي الاستعماري ومعالجتها قضايا بعيدة عما كان المجتمع المغربي يعيشه من تحولات واضطرابات، فإن مرحلة السبعينيات قد شهدت ظهور جيل من الروائيين الذين انتقلوا بالرواية المغربية إلى المرحلة الواقعية التي تستمد فيها مادتها الإبداعية من واقع الإنسان المغربي، وتتجاوز ذلك لتعبر عن رؤية نقدية لهذا الواقع.

وكان في مقدمة هؤلاء: محمد زفزاف ومحمد شكري اللذان أصدرا عمليهما الروائيين الأولين، وهما على التوالي: "المرأة والوردة" و"الخبز الحافي" سنة 1972. وقد صنف محمد شكري عمله على أنه "سيرة روائية". وهي تقدم صورة تتضمن نقدا لاذعا للمجتمع المغربي وتناقضاته من خلال سيرة تمزج الواقعي بالخيالي وتلامس قضايا مستمدة من المعاناة اليومية للإنسان المغربي كالرشوة والفساد والمخدرات والجنس...

وفي رواية "المرأة والوردة" يروي زفزاف عن شاب هاجر إلى أروبا بحثا عن الحرية التي افتقدها في المغرب، وذلك بعد لقائه بصديق له من المهاجرين حكى له عن الجنة الأروبية. وبعد تحقيق حلم الهجرة يصبح الغرب فضاء لتجسيد الحرية وممارستها عبر علاقة البطل بالمرأة، التي تمثلها في الرواية صديقته سوز.

وتثير الرواية جملة من القضايا ذات الصلة بالواقع الاجتماعي المغربي، ومنها:

1. **ثنائية الشرق والغرب**: وذلك من خلال المقارنة بين المغرب بوصفه مكانا للفقر والجوع وفقدان الحرية، والغرب بوصفه مكانا للحرية والكرامة، إذ تحضر هذه المقارنات في الرواية عن طريق استرجاع البطل (الذي يتولى مهمة السرد أيضا) أجزاءً من حياته الماضية في المغرب ومقابلتها بما يعيشه في أروبا.
2. **حياة المهمشين**: حيث يعد موضوع الإنسان الفقير والمهمش تيمة مركزية للكتابة السردية عند زفزاف. وهو ما تجلى لديه بشكل مبكر من خلال روايته الأولى هاته، إذ يرتبط بحياة المهمشين إثارة القضايا التي ترتبط بحياتهم كالمخدرات والجنس الهجرة.
3. **قضية الحرية**: يثير زفزاف في روايته موضوع الحرية الفردية، سواء من خلال ممارسات البطل/السارد أو من خلال إثارة موضوع الإلحاد والثورة على الدين والتقاليد، إذ تبدو هجرته إلى أروبا محطمة لكل المعتقدات السابقة التي تعد عنده تقييدا لحريته الفردية.

وبهذا تكون الرواية في هذا الجانب نموذجا لبداية المرحلة الواقعية التي تمتاز بإثارة مواضيع اجتماعية جديدة لم تكن مطروقة في روايات المرحلة السابقة، كما تمتاز بانتقاد الأوضاع الاجتماعية التي ميزت المرحلة.

ويمتاز الجانب الفني للرواية بجملة من الخصائص نوجزها فيما يلي:

1. **تنويع أساليب السرد والرؤية السردية**، مع تراجع دور السارد العليم الذي يميز السرد التقليدي، وذلك عن طريق المزج بين وضعية الراوي المشارك (الذي يهيمن على سرد معظم فصول الرواية) ووضعية الراوي المفارق غير العليم، الذي يروي عن غيره (روى محدثي في زمن غابر ما يأتي: هذا العصر عصر جمع المال... وأقول لك إننا محظوظون في أروبا أكثر مما نحن عليه هنا في الدار البيضاء. هنا تسيّرنا أقلية بيضاء...). وهو ما يعني تنويعا في الرؤية السردية وفي أسلوب السرد.
2. **اللغة البسيطة** التي تتحول في كثير من الأحيان إلى العامية (قل لي أما زلت تتخدر؟ أريد أن أقول: هل ما زلت تكمي الكيف؟). وهنا سنشهد لأول مرة توظيف العامية المغربية في الحوار والتخلي عن صفاء اللغة الفصحى،

بشكل يعكس الأوضاع الاجتماعية للشخصيات ويعدّ محاكاة للغة الواقعية التي توظفها شخصيات الرواية بوصفها نماذج اجتماعية.

3. **كثرة المفارقات الزمنية**: المتمثلة خاصة في الاسترجاع الذي يتذكر السارد من خلاله حياته في المغرب (في سنوات معينة، سنوات منطبعة كحد السكين في ذاكرتي وقلبي، كنا نعاني من الجوع الشديد والفقر).

والخلاصة أن هذه الخصائص المضمونية والفنية، إن كانت تسم أعمال زفزاف السردية في مختلف مراحلها، سواء أكانت روائية أم قصصية، فإنها تمثل في الوقت نفسه نقطة تحول في الرواية المغربية نحو مرحلة ترتبط فيها ارتباطا وثيقا بواقعها الاجتماعي، وتعمل في الآن نفسه على تجديد أساليبها في الكتابة السردية.

وهكذا، ومن خلال النظر في أبرز الأعمال الروائية التي تنتمي إلى المرحلة الواقعية (ما بين منتصف الستينيات ومنتصف السبعينيات) يمكننا استخلاص جملة من الخصائص الموضوعية والفنية التي تسم الكتابة الروائية خلال هذه المرحلة:

**فعلى مستوى الموضوع** أثارت الرواية المنتمية إلى هذه المرحلة قضايا جديدة ظهرت في المجتمع المغربي مع تفاقم الأوضاع الاجتماعية واتساع الهوة بين الفئات الفقيرة والفئات المحظوظة، وأهمها:

1. **طرح قضايا المهمشين**، كالفقر والأمية والمخدرات والجنس والهجرة... مثلما نجد في روايتي: "المرأة والوردة" لمحمد زفزاف و"الخبز الحافي" لمحمد شكري.
2. **الموضوع الوطني**، الذي طرحه غلاب في "دفنا الماضي" وكان له امتداد إلى ما بعد هذه المرحلة في "الريح الشتوية" لمبارك ربيع.
3. **صراع الأجيال، الذي يتجلى بوضوح في روايتي** "جيل الظمأ" للحبابي و"دفنا الماضي" لغلاب.
4. **ثنائية الشرق والغرب**: وهو موضوع تجسده بوضوح رواية "المرأة والوردة". ويعبر عن وعي بالهوة الحضارية الشاسعة التي تفصل بين المغرب، بوصفه جزءا من الشرق، وأروبا التي صارت تمثل حلما لكثير من المغاربة الباحثين عن الخبز أو الحرية. وهو موضوع يستحضر ما طُرح في بعض الروايات المشرقية ك"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح و"الحي اللاتيني" لسهيل إدريس.

**وعلى مستوى أسلوب الكتابة الروائية** يمكن إجمال أبرز الخصائص فيما يلي:

1. **الانتقال الواضح نحو الكتابة الروائية بمفهومها الغربي**، إذ أصبحت الكتابة الروائية أكثر تميّزا و"تجنُّسا"، وأضحت أكثر استقلالا عن الكتابة السيرية التي نجدها في أعمال من قبيل "وزير غرناطة" و"سبعة أبواب" و"دفنا الماضي". وهذا ما جعل الكتابة الروائية أكثر نضجا من الناحية الفنية، مع أن البعد السيري للكتابة الروائية ظل حاضرا في بعض الأعمال كروايتي زفزاف وشكري.
2. **الاهتمام بالمضمون الاجتماعي والقومي على حساب الشكل**: ويعود ذلك إلى هيمنة الوعي الاجتماعي لدى الروائيين المغاربة، وإلى رؤيتهم الجديدة للكتابة الروائية بوصفها وسيلة لتحرير المجتمع والتعبير عن هموم المقهورين. وهذا الأمر سيشهد تحولا في المرحلة التالية التي تبدأ من منتصف السبعينيات، حيث سيصبح الشكل غاية تُبتغَى من الكتابة الروائية لدى فئة من الروائيين الذي خاضوا غمار التجريب من خلال تجربة "الرواية الجديدة".
3. **اللغة البسيطة** القريبة من الواقع والمعبرة عن هموم الطبقات المهمشة وتطلعاتها. وهي تحضر في مجمل الأعمال التي تمثل الاتجاه الواقعي في الرواية المغربية.

وما يمكن أن ننهي به الحديث حول هذه المرحلة أنها شهدت انتقالا واضحا نحو الكتابة الروائية الواقعية منذ بداية السبعينيات، مع روائيين أمثال محمد شكري ومحمد زفزاف ومبارك ربيع وعبد الله العروي... كما شهدت أيضا تطويرا في أساليب الكتابة الروائية. وقد جاء هذا الانتقال متأخرا عن القصة القصيرة التي حققت انتقالها نحو الواقعية منذ أواخر الخمسينيات. ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن نشأة الرواية المغربية قد جاءت متأخرة زمنيا عن نشأة القصة القصيرة.

## المرحلة الثالثة: المرحلة التجريبية (الرواية الجديدة)

يمكن تحديدها زمنيا من منتصف السبعينيات إلى وقتنا الحاضر. وتعود تسميتها بالمرحلة التجريبية إلى ما حققته الرواية المغربية خلالها من تجاوز في أساليب الكتابة الروائية. لكن من المهم أن نشير إلى أن بداية هذه المرحلة لا تعني انتهاء الرواية الواقعية التي ظلت حاضرة في المشهد الروائي المغربي بعد ذلك، وما تزال. ويمكن النظر إلى الرواية الواقعية، التي نشأت في المرحلة السابقة، على أنها "اتجاه" إبداعي يستمر في فرض حضوره، أكثر مما هي "مرحلة" منتهية. ولهذا فإن حديثنا عن "المرحلة التجريبية" في الرواية المغربية يعود إلى التوجه البيّن لعدد كبير من الروائيين نحو الاهتمام بالشكل الروائي أكثر من اهتمامهم بمضمونه، دون أن ينفي ذلك عن هذه الرواية ارتباطها الوثيق بالواقع وإثارتها قضايا اجتماعية وسياسية مختلفة.

وقد تضافرت في هذه المرحلة عوامل مختلفة، ثقافية واجتماعية وقومية، أدت إلى نشأة الرواية المغربية الجديدة وظهور تيار التجريب فيها، وأبرزها:

1. **ظهور الرواية الجديدة بفرنسا** مع كُتّاب أمثال ألن روب غرييي وميشال بوتور وناتالي ساروت. وقد كان للتعليم الفرنسي وانتشار اللغة الفرنسية دور في سرعة تأثر الرواية المغربية بهذا الاتجاه الجديد القائم على كسر قواعد السرد التقليدي.
2. **ظهور الرواية الجديدة بالمشرق** بتأثير من الرواية الجديدة الغربية، مع كتاب أمثال صنع الله إبراهيم وإدوار الخراط وحيدر حيدر...
3. **انهيار المشاريع القومية العربية** بعد توالي الهزائم أمام الاحتلال الصهيوني، وخاصة بعد هزيمة 67، وبعد حرب 73 التي خيبت آمال المثقفين العرب، ومنهم المغاربة، بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد.
4. **خيبة أمل المثقف المغربي** بعد الحصول على الاستقلال بفعل تفاقم الأزمات والفوارق الاجتماعية، وهيمنة الحكم الشمولي، والتضييق على الحريات، وتبخر الآمال في تحقيق المشاريع التنموية والديمقراطية. وقد كانت مرحلة السبعينيات مرحلة صدامات متعددة بين النظام السياسي وبين فئات واسعة من المثقفين اليساريين، وخاصة بعد الانقلابين العسكريين الفاشلين سنتي 1971 و1972.

فكل هذه العوامل أدت إلى ظهور نوع من الكتابة الروائية التي تتمرد على الأنماط السائدة، وتعلن رفض فئة من الروائيين المغاربة للأوضاع القائمة بطرق مختلفة منها تفرغ بعضهم للمسألة الجمالية في الكتابة الروائية، فكان أول عمل روائي تجريبي هو "زمن بين الولادة والحلم" الذي أعلن به أحمد المديني سنة 1976 دخول الرواية المغربية تجربة "الرواية الجديدة".

وتمتاز هذه الرواية بنهجها منهج الرواية الجديدة في أروبا في تخليها عن الاهتمام بالشخصيات وتماسك الأحداث ومختلف تقنيات الكتابة التقليدية، لتأتي في صيغة تأملات شخصية تفتقد فصولها إلى ما يربط عادة بين فصول الرواية من تطور الأحداث، ليرى فيها بعض النقاد عملا فوضويا في الكتابة الروائية (لحمداني: 409-410).

وقد لخص حميد لحمداني أبرز مظاهر التجريب في هذه الرواية في ثلاثة هي (لحمداني: 410 وما بعدها):

1. **طبيعة العلاقة بين المقاطع الروائية:** وهي علاقة قائمة على التفكك وانعدام التسلسل الزمني الذي يجعل المقطع مرتبطا بما قبله.
2. **تداخل الضمائر:** وهو ما يدل على تداخل بين الشخصيات الروائية، فيضع القارئ أمام صعوبة تحديد هويتها بوضوح.
3. **اختلال الزمان:** إذ ينعدم الزمان الحكائي الذي يحتوي الأحداث، كما تتداخل الفترات الزمنية (الماضي/الحاضر/المستقبل) بشكل يربك القارئ.

وهذه المظاهر كلها تدل على كسر المديني في روايته قواعد الكتابة السردية السائدة، ليفتتح، بذلك، مرحلة التجريب في الرواية المغربية.

وبداية من الثمانينيات عرفت الكتابة الروائية بالمغرب تطورا كميا ونوعيا بظهور جيل جديد من الكتاب الذين خاضوا غمار التجريب أمثال أحمد المديني والميلودي شغموم وعبد الله العروي وبنسالم حميش ومحمد عز الدين التازي، مع استمرار الجيل السابق في الكتابة من أمثال: مبارك ربيع ومحمد زفزاف ومحمد شكري وعبد الكريم غلاب، وخوض بعض الكتاب من هذا الجيل، أمثال مبارك ربيع، تجربة الكتابة الروائية الجديدة، واستمرارهم، بجانب روائيين آخرين، في كتابة الرواية الواقعية التي تحافظ على قواعد السرد وتسعى إلى تحقيق نوع من التوازن بين التجديد الفني ومعالجة الموضوع الاجتماعي.

وهكذا يمكن إجمال الخصائص العامة لهذه المرحلة التي تبدأ من منتصف السبعينيات فيما يلي:

1. **التطور الكمي** للأعمال الروائية واتساع دائرة الكتاب
2. **تباين أساليب الكتابة:** وذلك باستمرار التجارب السابقة التي تحمل سماتها الموضوعية والفنية الخاصة التي ترتبط بالمرحلتين الأولى والثانية (مرحلة التأسيس والمرحلة الواقعية) مع أمثال: مبارك ربيع وزفزاف وغلاب وشكري، مع ظهور جيل جديد من الكتاب المتأثرين بأساليب الكتابة الروائية الجديدة في الغرب وفي المشرق العربي من أمثال محمد عز الدين التازي والميلودي شغموم وبنسالم حميش وعبد الله العروي. وبذلك، فإن تسمية هذه المرحلة بالمرحلة التجريبية لا يعني إلغاء الأبعاد الإحالية (التاريخية والاجتماعية) التي ظلت مستمرة في إنتاجات روائية متعددة.
3. **ترسخ الاتجاه الواقعي** بموضوعاته الاجتماعية التي تتناول قضايا المهمشين وثنائية الذات والآخر والتطلع نحو الحرية والديمقراطية. وقد ظل هذا الاتجاه مستمرا حتى عند بعض الكتاب الممارسين للتجريب أمثال أحمد المديني وعبد الله العروي ومحمد برادة وبنسالم حميش.
4. **بداية تجربة الرواية الجديدة،** مع إصدار أحمد المديني روايته زمن بين الولادة والحلم.

ولما كانت تجربة الرواية الجديدة أهم تجربة وسَمَت هذه المرحلة، فإننا نقف عند بعض خصائصها التي تتجلى في أعمال روائية بارزة هي: "عين الفرس" للميلودي شغموم، و"أوراق" لعبد الله العروي، و"بدر زمانه" لمبارك ربيع و"العلّامة" و"مجنون الحكم" لبنسالم حميش.

ويمكن إجمال الخصائص التي تشترك فيها هذه الأعمال الروائية فيما يلي:

1. **الاهتمام بالأسلوب** الذي أصبح غاية في ذاته، من خلال "شعرنة" اللغة وكسر الإيقاع الزمني وتنويع الرؤى السردية وتغريب الفضاء الروائي.
2. **تراجع أهمية المضمون الحكائي** والحبكة السردية: إذ يصعب على قارئ هذه الأعمال تتبع خيوط السرد، بسبب غياب التسلسل الزمني للأحداث، ولكون بعض هذه الأعمال تتخلى في كثير من الأحيان عن مفهوم السرد لتتحول إلى تأملات للسارد أو الشخصيات هي أقرب إلى الكتابة الشعرية منها إلى الكتابة السردية.
3. **حضور العجيب**: حيث تسعى هذه الأعمال إلى تغريب الحدث والزمن الروائي. وهو ما يصعب على القارئ التقليدي إدراك أبعاده الدلالية. من ذلك مثلا هذه الفقرة من رواية "عين الفرس" للميلودي شغموم، حيث يقول السارد: "فأنا، سبحان مدبر الخلق، قد ولدت سنة 661، ومت بعدها بعشر سنوات، ثم ولدت سنة 842، ومت بعدها بعشرين سنة، ثم ولدت سنة 1830، ومت بعدها بثلاثين سنة، ثم ولدت سنة 2967، ومت بعدها بأربعين سنة، ثم ولدت سنة 2041، ولا شك أني سأموت، إن شاء الله، بعد عشر سنوات، أي سنة 2091. بذلك، إذا حسبتم سنوات حياتي، سيكون عمري، والحمد لله، مائة وخمسين سنة".
4. **كثرة التناص**: إذ يعد التناص سمة من سمات الكتابة الإبداعية الجديدة في الشعر والسرد. وتمتاز هذه النصوص الروائية بكثرة النصوص التي يتم استدعاؤها. وهو ما يفرض على القارئ خروجه في كثير من الأحيان من مجال الرواية إلى سياق النصوص التي يتم استدعاؤها. ومن نماذج ذلك ما نجده في رواية "أوراق" من نصوص فلسفية وثقافية متعددة، وما تزخر به رواية "العلامة" من نصوص تاريخية، إضافة إلى ما في رواية "بدر زمانه" من نصوص مختلفة منها الزجل المغربي.
5. **توظيف التراث**: عُرفت بعض الأعمال الروائية الجديدة باعتمادها على التراث العربي واستدعائه لأداء غايات دلالية وجمالية مرتبطة بمقاصد النص الروائي. وقد أطلق أحمد اليبوري على هذه الأعمال وصف "الحداثة التراثية" التي يمثلها روائيون أبرزهم: بنسالم حميش وأحمد التوفيق. وهو يرى أن هذا الاتجاه في الرواية الجديدة قد حقق نجاحا يفوق ما حققته الروايات التي لا تستدعي التراث العربي لاستناده إلى الثقافة المشتركة بين الكاتب والقارئ. ومن أبرز النماذج التي يمكن الوقوف عندها لتوظيف التراث العربي: روايتا "مجنون الحكم" والعلاّمة" لبنسالم حميش.

فرواية "مجنون الحكم" تتناول قصة الخليفة الفاطمي "الحاكم بأمر الله" الذي يحترف القتل والاستبداد، وينتهي مقتولا على يد أخته "ست الملك" التي كانت تعارضه فيما يفعل.

أما "العلامة" فسيرة روائية تتناول شخصية العلامة ابن خلدون رفقة كاتبه حمو الحيحي. وتثير قضية مركزية تتمثل في علاقة المثقف بالسلطة. وهي قراءة جديدة لسيرة ابن خلدون ألقى الكاتب الضوء على غايتها في المقدمة حين صرح بأن ابن خلدون لم يكن من فقهاء السوء. وهو ما يسعى إلى إبرازه من خلال مواقف ابن خلدون وأقواله في أحداث الرواية كقوله إن المثقف الأصيل لا يكون تابعا للسلطة، وكذا صلته بكل من حاكم مصر "الظاهر برقوق" الذي ولاه القضاء، و"تيمور لنك" زعيم المغول بعد استيلائه على بلاد الشام.
6. **تداخل أساليب الكتابة**: حيث يعود ذلك إلى تعدد المرجعيات التي ينطلق منها كُتّاب الرواية الجديدة، وتنوع النصوص التي يستحضرونها. وهكذا نجد في هذا الاتجاه مزجا بين أساليب الكتابة النثرية القديمة والكتابة الشعرية والفلسفية والتاريخية... وهو ما نلمسه بوضوح في روايات كمجنون الحكم والعلامة لبنسالم حميش، وعين الفرس للميلودي شغموم وبدر زمانه لمبارك ربيع، وأوراق لعبد الله العروي.

7. **تنازع السرد بين ساردين متعددين:** وهو أسلوب يميز الكتابة السردية الجديدة التي أصبحت تتخلى عن السارد الوحيد، بحيث يتم إسناد السرد إلى شخصيات متعددة تتناوب على تقديم الأحداث من وجهات نظر مختلفة. ولعل أبرز رواية تتجلى فيها هذه الظاهرة رواية "لعبة النسيان" لمحمد برادة.
8. **تقليص حضور السارد العليم:** يرتبط هذا العنصر بالعنصر السابق المتعلق بتجديد أساليب السرد، بحيث تقلص دور السارد العليم الذي يهيمن على السرد في الاتجاهات السردية الأخرى (الواقعية والتاريخية والتقليدية)، ليتم إسناد السرد إلى ساردين متعددين أو إلى سارد تكون معرفته بالأحداث أقل من معرفة الشخصيات. وفي هذا احتذاء للكتابة الروائية الجديدة التي نشأت في الغرب والتي يطلق عليها لهذا السبب: الرواية الشيئية. والنموذج الواضح لهذه الظاهرة هو رواية عين الفرس للميلودي شغموم.
9. **خلخلة النظام الزمني:** وذلك عن طريق تكثيف المفارقات الزمنية وكسر الإيقاع الزمني بتوظيف تقنيات الاستباق والاسترجاع والخلاصة والمشهد والوقفة...
10. **تداخل الروائي والسيري:** وهي ظاهرة عرفت بها الرواية المغربية في فترة نشأتها، فكانت دليلا على عدم نضج الوعي بالنوع السردي. لكنها أصبحت في الرواية الجديدة سمة فنية يُقصَد من خلالها تحقيق التجاوز على مستوى النوع الأدبي بإحداث تداخل بين الكتابتين السيرية والروائية. نلمس هذا في عدد من الروايات التي تمثل هذا الاتجاه مثل: أوراق والعلامة.

والخلاصة أن الرواية المغربية قد تمكنت منذ منتصف السبعينيات من تحقيق قدر من التطور على مستوى كل من الشكل والمضمون، وذلك بفعل تراكم التجارب الروائية وتنوعها وتباين اتجاهاتها، فكانت تجربة الرواية الجديدة من أهم التجارب التي وسمت هذه المرحلة. لكن التكوين المتأخر لهذه التجربة وللكتابة الروائية بالمغرب عامة، والذي ساهمت فيه كل من الرواية المشرقية والرواية الفرنسية الجديدة، ما زال يطرح أسئلة تتعلق بأصالتها ومزاوجتها بين النزوع نحو التجديد والتجاوز وبين الاستجابة لشرط الإبداع الذي بدونه تفقد الكتابة الروائية قيمتها.